

الأصول الفلسفية لمناهج البحث وعلمية العلوم الإنسانية

Philosophical Origins Of Research Methods And Human Sciences

تاريخ القبول: 18-08-10

تاريخ الإرسال: 2018-05-09

الدكتورة: فاطمة صياد

sayedfatima81@gmail.com

جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف الجزائر

ملخص:

شهدت العقود الأخيرة تطورا معتبرا في مناهج البحث في العلوم الإنسانية، بغية بلوغ درجة من الموضوعية والوصول إلى المشترك بين بني الإنسان، فظهرت طرائق بحث متعددة تسعى إلى تكوين قواعد منهجية صارمة تعلي من درجة الموضوعية، وتتجاوز في نفس الوقت التحيز والوقوع في الذاتية، غير أن خصوصية الظواهر المدروسة جعلت تلك العلوم تواجه جملة من التحديات تتعلق بقدرتها على الاستجابة لمتطلبات العلم الحديث من جهة، ومن جهة أخرى إحداث القطيعة التامة مع الطابع الفلسفي الذي نشأت في ظلاله، والذي هو وثيق الصلة بموضوع بحثها؛ فهل استطاعت العلوم الإنسانية الانسلاخ من مرجعيتها الأصلية، والتجرد من خصوصيتها في ظل معطيات الحاضر وما يفرضه العلم من تحولات فكرية؟ وكيف يمكن أن نبرر القول بوجود أزمة تعيشها اليوم على مستوى مناهج البحث فيها؟ وهل باستطاعة تلك المناهج الانفتاح على العلوم الأخرى والمناهج الحديثة حتى تكون قادرة على مواكبة الواقع والتفاعل معه ومع تحولاته؟

الكلمات المفتاحية: مناهج؛ علوم إنسانية؛ تأصيل فلسفي، رؤية علمية.

Abstract:

In recent decades, there has been a significant development in research methods in the humanities, in order to achieve a degree of objectivity and reach to the inter-human. Various methods of research have sought to form strict methodological rules that raise the degree of objectivity, but at the same time transcend bias and fall into the subjective. The peculiarity of the studied phenomena has made these sciences face a number of challenges related to their ability to respond to the requirements of modern science on the one hand, and on the other hand to create a complete rupture with the philosophical nature that has arisen in its shadow, which is relevant to the subject of its research; Is it inherent, and be deprived of its privacy in light of the present and the intellectual changes imposed by science? How can we justify the fact that there is a crisis today in the level of research methods? Can these curricula open up to other sciences and modern approaches to be able to cope with reality and interact with it and its transformations?

Keywords: Curriculum; Human Sciences; Philosophical Origination, Scientific Vision.

مثلما بدأ التفكير في العالم الخارجي، فتساءل الإنسان عن مصدر الأشياء التي تحيط به، ولم يبحث ذاته إلا بعد أن رفع سقراط شعار "اعرف نفسك بنفسك"، تأخر البحث في الظواهر الإنسانية في العصر الحديث، وكان أن وجهت علوم الطبيعة اهتمامها إلى عالم الأشياء المادية، وأهملت جانب الوعي في الإنسان، فعلماء القرن الثامن عشر لم يتصوروا أنّ الإنسان يمكن أن يكون موضوع بحث علمي يتحول فيه من الإنسان الذات إلى الإنسان الموضوع، واعتبروا أنّ ذلك يتعارض مع مركزته في الكون ومنزلته المتميزة في نظام المخلوقات. غير أنّه ومع بروز الكشوف العلمية المتلاحقة، وتطور علوم البيولوجيا، والآثار الاجتماعية العميقة للثورة الصناعية في أوروبا، وما انجر عنها من تغييرات جذرية، بدأت مراجعة الكثير من المفاهيم والأفكار عن الإنسان، وكذا علاقته بالطبيعة وظهرت جدوى دراسة فعاليات الإنسان عمليا، ومثلما رفع سقراط قديما شعاره المذكور ليحدث القطيعة مع الفلسفة الطبيعية، مثلما تجلّت في أبحاث سابقه، رفع علماء محدثون الدعوة ذاتها، ملاحظين أنّ الإنسان، وإن أحرز تقدما في فهم ما يحيط به، فإنّه في المقابل يجهل ذاته تماما، إنّه "الإنسان ذلك المجهول" كما صرّح ألكسيس كاريل¹.

ولكن ينبغي إزاء تلك الرغبة الجامحة في اختراق عوالم الإنسان من حيث هو إنسان، والسعي إلى دراسته من منظور علمي بمقاييس العلم، أن نلاحظ أنّ ما يمكن أن يُسمّى، استجابة لتلك الدعوة، بالعلوم الإنسانية ذات موضوع متميّز وفريد من نوعه؛ فهي علوم موضوعها الإنسان كروح، ولذلك يسميها الفلاسفة الفرنسيون بالعلوم الأخلاقية تمييزا لها عن العلوم التي تهتم بجسم الإنسان لا بخلقه، ويسميها آخرون أمثال الفيلسوف الألماني دلتاي بعلوم الروح. وقد تسمى بالانترولوجيا أو علوم الإنسان، وهي علوم كثيرة ولكن يمكن أن نحصرها في أصناف ثلاثة تجمعها: وهي العلوم النفسية والعلوم التاريخية والعلوم الاجتماعية.

هذا، ويبدو بادئ ذي بدء أنّها علوم غير ممكنة، وأنّه لا يمكننا أن نسميها بالعلوم، لأن موضوعها الذي هو الإنسان ذو طبيعة تخالف الطبيعة الفيزيائية، فهو ذات، نخطئ إذا نظرنا إليه كموضوع، وشيء يفكر وليس شيئا بين الأشياء، وروح ليست المادة مصدرا له، وكائن يتصف بالوعي والعقل والحرية، له كشخص أصالة فريدة لا وجود لها لدى غيره من الكائنات التي يعيش بينها وتحيط به². ولأنّه (الإنسان) كائن فريد في نوعه، فالتفكير فيه والإحاطة بجوانب وجوده أمر يتجاوز طاقة الإنسان.

ومن هذا المنطلق فإن الفعل الإنساني يظهر بدلالات مختلفة نفسية، ثقافية، اجتماعية، دينية، عقائدية، اقتصادية حضارية وغيرها، والإيفاء بها يفرض منهجيا إقامة مجالات معرفية متميزة يختص كل واحد بدراسة احد جوانب الحادثة الإنسانية؛ جانب نفسي يختص به علم النفس، جانب حضاري زمني يختص به علم التاريخ، وآخر اقتصادي يختص به علم الاقتصاد... الخ، وبالتالي فالحقل المعرفي للعلوم الإنسانية هو الإنسان من وجهات نظر مختلفة، ففعاليات الإنسان تتشكل وتتبع من أرضية نفسية ذاتية، وفي محيط اجتماعي موضوعي، فهي قائمة في صلب الإنسان، وتعبّر عن دوافعه وميوله وأهوائه ككائن واع لذاته، ولما يصدر عنه وللمحيط الذي يتحرك فيه.

تأسيسا على ذلك يتأكد أن زوايا النظر إلى الإنسان كثيرة، نخطئ إذا قلنا أنها غير متناهية، وكذلك العلوم التي تهتم به، فعلوم النفس كثيرة وكذلك علوم التاريخ والاجتماع، وهي ذات رواج كبير في عصرنا. ونظرا لكون الظاهرة الإنسانية تختلف اختلافا بينا عن الواقعة الطبيعية، باعتبار أن الباحث في الطبيعة يضطلع بدور الملاحظ والمجرب بشيء من اليسر ويحقق قدرا من الموضوعية، ويصل إلى تفسيرات كلية ويقينية، لأن نظام الوقائع ثابت لا يتغير، بينما الباحث في المجال الإنساني فيبحث واقعا صادرا عن ذات تتصور وتفهم، وتتصرف على هذا النحو أو ذاك تبعا لنوايا ورغبات، وحسب قيم أخلاقية ومعتقدات إيمانية معينة.

ولكن مع التسليم بأن موضوع العلوم الإنسانية ينفرد بخصائص تميزه عن عالم الأشياء، إلا أن الإنسان من حيث هو كائن حي، يمثل جزءا من الطبيعة يخضع بدوره لقوانين المادة والحياة، ومن هذه الزاوية تدرسه علوم الطبيعة في جانبه البيولوجي. إلا أن تميزه بالقدرة على التعقل، لا يجعله كائنا يتجاوز الطبيعة، ومن ثم فهو فقط موضوع بحث دراسات متميزة ألا وهي العلوم الإنسانية، ومن هنا فإن المجال المعرفي الذي تتحرك فيه العلوم الإنسانية هو الإنسان من حيث يحيا ويتكلم وينتج، و هو من هذه الزاوية لا يختلف عن باقي الظواهر في نظر الذين يجدون في دراسته دراسة علمية موضوعية.

ويعني هذا أن العلماء قد صاروا يدرسون الإنسان في عصرنا مثل الأشياء الطبيعية، أو داخل المجال الذهني الذي أنشأته الفيزياء الحديثة، وأنهم صاروا لا يعيرون قيمة لمعرفته إذا لم تكن موضوعية تعبر عنها القوانين الثابتة العامة، و يقينية توصل إليها المناهج المضبوطة، وبالتالي فالعلوم الإنسانية صارت تعتمد على التجربة والرياضيات، كما تعتمد عليهما الفيزياء الحديثة التي تم تأسيسها في القرن السابع عشر والثامن عشر على يد العالم الايطالي "غاليليو" والعالم الانجليزي "نيوتن"، وصارت تعتبر المعيار لكل معرفة يمكن اعتبارها علما.

ويظهر من ذلك أن المعايير المعرفية الكبرى التي ينطلق منها هؤلاء الباحثين في دراستهم للإنسان هي، وبشكل عام، المعايير التي يسمح بها منظور العلوم الدقيقة أو منظور علم الحياة، أو منظور الثقافة والتاريخ، وبناء على ذلك اعتبر العديد من المفكرين أنه مثلما القوانين الطبيعية مطردة في عالم الطبيعة؛ فإن القوانين الاجتماعية مطردة في المجال الإنساني، حيث يرى ابن خلدون «إن كلَّ حادث من الحوادث ذاتا كان أو فعلا لا بد من طبيعة تخصه في ذاته، وفيما يعرض له من أحواله»، ويقول كذلك: «إن الحوادث في عالم الكائنات، سواء كانت من التصورات أو من الأفعال البشرية أو الحيوانية، فلا بد لها من أسباب متقدمة عليها، بها تقع في مستقر العادة وعنهما يتم كونها»³.

وفي نفس السياق يقول إميل دوركايم (1858-1917م): «لم تعد المجتمعات تبدو ضريبا من المادة التي يمكن تطويعها وتشكيلها إلى ما لا نهاية له، أو قل انه يمكن للإنسان أن يعجنها كما يشاء، لقد أصبح من الضروري، من الآن فصاعدا، أن نعتبر المجتمعات حقائق طبيعية تفرض نفسها علينا، ولا يمكن أن يطرأ عليها كسائر الأشياء الطبيعية تغير إلا طبقا للقوانين الطبيعية التي تحكمها، إن مؤسسات الشعوب لم يعد من الجائز أن تعتبر نتاج الإدارة، والتي يختص بها الأمراء ورجال الدولة المشرعون، وإنما هي نتائج ضرورية لعلل محددة تستتبعها استتباعا فيزيائيا»⁴. وواضح من هذا أن

دوركهم يقول بشيئية الظاهرة الاجتماعية، أي اعتبارها مثل حقائق العالم الخارجي، وبالتالي يجب معالجة الواقعة الإنسانية في بعدها الاجتماعي بوصفها شيئا.

هذا، ويذكر كارل ماركس (1818-1883م) بأن «الناس في الإنتاج الاجتماعي لوجودهم، يدخلون في علاقات محددة ضرورية مستقلة عن إرادتهم، هي علاقات الإنتاج التي تتناسب مع درجة التطور المخصوص الذي بلغته قوى الإنتاج المادية عندهم، ومجموع علاقات الإنتاج هذه يكون بنية المجتمع الاقتصادية، وهي القاعدة الملموسة التي تقوم عليها بنية فوقية قانونية وسياسية ترافقها أشكال وعي اجتماعية محددة، فمط إنتاج الحياة المادية يتحكم في مسار العيش الاجتماعي والسياسي والفكري بوجه عام، فليس وعي الناس هو الذي يحدد كينونتهم، بل كينونتهم الاجتماعية هي التي تحدد وعيهم»⁵.

من هذه المنطلقات اجتهد سيكولوجيون ومؤرخون واجتماعيون في تطبيق المنهج التجريبي في أبحاثهم، أي إخضاع الظاهرة الإنسانية للدراسة العلمية، غير أنهم لم يحققوا إلا تقدما محدودا، فالمدرسة السلوكية على سبيل المثال، والتي حاولت أن تجعل من علم النفس علما طبيعيا، قد أخضعت السلوك للملاحظة الخارجية مستبعدة المشاعر والنوايا والقصد، واختزلته في ثنائية " المنبه والاستجابة"، وبالتالي ركزت على البعد السلوكي وحده، وفي مجال التاريخ فسرت المادية التاريخية حركية التاريخ بالتغيرات التي تطرأ على القاعدة الاقتصادية، مغفلة العوامل الأخرى، بينما كان لابد من النظر إلى مختلف العوامل المؤثرة في واقع الناس، وليس النظر فقط إلى المعطيات المادية. ولهذا، فإنه يمكننا أن نقول بأن نظرية المعرفة التي تقوم عليها تلك الرؤى لا تزال لم تتجاوز طور طفولتها، وكذلك التفكير العام في مواضيعها ومناهجها، وتبعا لذلك هي مناظير تنفي بعضها بعضا، ويعطي كل منها صورة أو صورا عن الإنسان لا علاقة لها به، وذلك على الرغم مما يمكن أن تكون قد سمحت به، أو أن تسمح به من فتوحات في معرفتنا لهذا الجانب منه أو ذاك.

ذلك لأن الإنسان ليس آلة تتركب من قطع، بحيث نصل من خلال دراستنا لها على حدا إلى معرفته على حقيقته، ولكن وحدة متكاملة تحيط به وتقبض عليه المعرفة الموحدة الكاملة، وهي معرفة يتطلب الوصول إليها تنظيما كليا جديدا لنظام المعرفة بأكمله من جهة، ومعرفة يجب علينا على الرغم من هذا أن نطلبها، وان نتقدم في مجالاتها لمنح وجودنا كماله الأسمى، ونحميه من أخطار كل معرفة محدودة تريد أن تكون تفسيراً نهائياً لماهيتنا، وهي في الحقيقة مجرد رؤية مبتورة لها من جهة أخرى.

وبناء على ذلك فإن المناهج المتبعة في دراسة الحياة النفسية والتاريخ والمجتمع مختلفة نوعيا عن المناهج التي أدت إلى معرفة الطبيعة، فليس هناك منهج واحد شامل لإدراك الحقيقة في جميع العلوم.

كما أن تعدد مناهج الدراسة في الكشف عن الحادثة النفسية أو التاريخية ضروري لتعدد التحليلات التي تبدو بها، فالحادثة النفسية مثلا تبدو شعورية، ولا شعورية وموضوعية، واجتماعية... الخ، كما أن الحادث التاريخي تتصافر في تشكيله عوامل مختلفة فتجعل وجوهه متعددة، ذاتية وموضوعية، وسياسية واقتصادية، وغيرها.

ومن هنا فإن العلمية في الدراسات الإنسانية والتي تتوقف على مدى تطويع الحادث الإنساني ومعالجته بالمنهج العلمي، يعتبر من أهم أسباب مظاهر التعثر التي عرفتھا الدراسات الإنسانية، ومع ذلك نستطيع القول بأن المقاربة الإستيمولوجية لتاريخ العلم والتطور اللاحق للعلوم الإنسانية، مكنتنا من الانفتاح على أشكال من العقلانيات العلمية، وهذا كإدراك التمايز بين مجالين للمعرفة العلمية مختلفين نوعيا، وهما مجال الظواهر الطبيعية ومجال العلوم الإنسانية.

كما لا يمكننا أن نعمم معايير المعرفة العلمية المعهودة في نموذج العلوم الطبيعية على العلوم الإنسانية باعتبار أن العقلانية العلمية تتنوع من حيث الموضوع والمبادئ والمنهج والنتائج، ومن جهة أخرى يتعين التمييز بين المنهج العام والمنهج الخاص، فإذا كان من المقرر أنه "لا علم دون منهج"؛ فإنه من جانب آخر من الثابت في علم مناهج البحث أن "طبيعة الموضوع هي التي تحدد نوعية المنهج".

وهكذا، فإن طابع الحادث الإنساني بما يتضمنه من دلالات ومقاصد يجعل الدارس في المجال الإنساني لا يتحرك في عالم الأشياء المعطاة تلقائيا، وإنما يتحرك في فضاء من المقاصد والقيم، وتفسير الحادث بإرجاعه إلى شروطه لا يكفي، إذ لا بد من الفهم، وفهم السلوك إنما يكون عن طريق التأويل والتعاطف مع الموضوع لاستكناه ما جال بذهن الذي صدر عنه، والمنهج العلمي هنا لا يحقق ذلك،

ومن هنا إذن وجب التفكير في إبداع طرائق ملائمة لدراسة الظاهرة الإنسانية، فالعلوم الإنسانية والتطورات التي يمكن أن تعرفها، هي أمور تهم كل إنسان وكل جماعة إنسانية، ولا تهم الاختصاصيين وحدهم، لأن آثارها ذات علاقة دائما باعتدال كل حياة أو اختلالها، كما أنه ليس هناك منهج واحد شامل للبحث عن المعرفة في جميع العلوم، الأمر الذي جعل الباحثين، في محاولتهم الكشف عن الظواهر النفسية أو التاريخية وتنظيمها، يسلكون عدة مناهج تستجيب لمقتضيات الواقع النفسي أو التاريخي ولا تختزله في بعد واحد لإدراك دلالاته وخصائصه. ففي علم النفس مثلا نجد علم نفس الشعور الذي يتخذ من الاستبطان منهجا لتحليل الحادثة النفسية التي يحياها الشخص للكشف عن وجهها الشعوري، وهو يقدم معلومات حتى وإن كانت تكتنفه صعوبات.

بالإضافة إلى علم النفس الفيزيولوجي الذي يدرس المظاهر العضوية للظواهر النفسية كنشاط الجهاز العصبي وأجهزة الحس، وذلك باعتبار أن ملاحظتها وقياسها أيسر، و أن الظواهر الجسمية تتحكم في ظواهر الشعور تحكما قويا. كما نجد علم النفس السلوكي، والذي يدرس هو الآخر ما يصدر عن الإنسان من استجابات شرطية بملاحظتها موضوعيا، فيدرس الذاكرة مثلا، ويلاحظ كيف تؤدي وظيفتها بحسب الظاهر، أي كيف يتعلم الإنسان وينسى... الخ، مما يمكن ملاحظته خارجيا، ومما هو استجابة لمنبهات قابلة للملاحظة والقياس.

هذا إلى جانب التحليل النفسي الذي يطبق التداعي الحر ومحاوره المريض و تأويل الأحلام لفهم السلوك الإنساني المرضي كالعصاب، والسلوك السوي، وأشكال مظاهر السلوك العفوي بهدف الكشف عن الأسباب اللاشعورية للاضطرابات النفسية، وبهذه المناهج وغيرها تكشف الأبحاث عن كنه الظواهر النفسية.

هذا، والموقف العقلي فيما يتعلق بالظواهر الإنسانية يتأرجح بين قطبين من أقطاب المعرفة، يمكن أن نسميهما بـ "الفهم" و "التفسير"؛ فالتفسير يعني أن نبين وجود صلات قارة بين عدد من الوقائع، و أن نستنتج من ذلك أن الظواهر المدروسة متولدة عنها، وذلك هو منهج الفيزيائي الذي يختزل مجموعة معقدة من الظواهر في نسق بسيط نسبيا من العلاقات.

غير أن الأمر ليس كذلك بالنسبة للأفعال الإنسانية؛ فالمراد هنا أن نفهم، أي ننتج من جديد على نحو حدسي، عاطفة أو انطبعا أو انفعالا، فعالم النفس وعالم الاجتماع يميلان إلى أن يختزلا تبسيطهما لوقائع هذه الطبيعة ومسلماها، وإلى أن يؤولا الفعل الإنساني تأويلا جامعا. ومهما بدا هذا الموقف أو كان موقفا مشروعا لا مفر منه، فإنه مع ذلك يمثل عائقا للعقل في العلوم، ذلك أن الفهم غالبا ما يوقف البحث إزاء وقائع معقدة ينبغي إجراء التحليل عليها، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن التفسير العقلي للواقعة الاجتماعية لا يحيل بالضرورة إلى مسلمات للوعي الفردي، وفي هذا يقول دلتاي «إن الظاهرة الإنسانية تفهم ولا تفسر»⁶.

إذن تعدد مناهج الدراسة في الكشف عن الحادثة النفسية أو التاريخية ضروري لتعدد التحليلات التي تبدو بها، وبالتالي فإن تقدم المباحث النفسية والتاريخية والإنسانية بشكل عام، يرتبط بابتكار مناهج متميزة خاصة بالظاهرة الإنسانية، بدليل ما حققته من نتائج، وإن كان الأمر يتطلب مزيدا من الجهود. فالأحكام المسبقة ومخلفات المناهج القديمة والاشتغال بمفاهيم تفتقر إلى الدقة، بل لا يمكن أحيانا توضيحها توضيحا صارما، والتعلق بمثل أعلى في المعرفة وتعميمه على كل الظواهر، دون وعي بخصوصية الظاهرة الإنسانية، كل تلك الأمور لا تزال تساهم في عرقلة تقدم العلوم الإنسانية وتخلق أزمة في مناهجها.

وإذا كان "الإنسان ذلك المجهول" هو ما دفع إلى بروز العلوم الإنسانية بهدف استكشاف جوانبه التي بقيت خفية، رغم تقدم فهمه لعالم الأشياء الخارجية؛ فإن تفرد الإنسان بخصائص تجعله بحق "الإنسان ذلك الكائن الفريد"⁷ الذي لا يمكن اعتباره مجرد شيء كالأشياء، كما تجعل من الدراسات الإنسانية علوما على منوالها تؤكد جدلية العلاقة بين الفلسفة والعلم بصورة أكثر وضوحا.

الهوامش:

¹ - كاريل ألكسيس، الإنسان ذلك المجهول، تعريب شفيق اسعد فريد، مكتبة المعارف، بيروت، ط3، 1981.

² - Meynard. L, **La connaissance**, Paris, 1963, PP 271-275.

³ - ابن خلدون، المقدمة، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، 2001، ص: 261، وص: 378.

⁴ - دوركايم إميل، قواعد المنهج في علم الاجتماع، ترجمة محمود قاسم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1988، ص: 26.

⁵ - ماركس كارل، نقد الاقتصاد السياسي، ترجمة فالح عبد الجبار، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2013، ج1، ص: 4.

⁶ - انظر: بدوي عبد الرحمن، *موسوعة الفلسفة*، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1984، ص: 475.

⁷ - هذا عنوان كتاب ل: جون لويس الفيلسوف البريطاني يرد فيه على الداروينية والقائلين بشيئية الإنسان، ترجمه صالح جواد الكاظم، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، 1986.